المحاضرة الخامسة

الشعر الجزائري باللغة الفرنسية، خصائصه التقنية

أن الخصائص التي ميزت شعر الجزائريين المكتوب باللغة الفرنسية مشتركة بين أدباء الشمال الإفريقي(تونس والجزائر والمغرب) وهي نفسها التي نجدها في أدب الأمريكيين وبخاصة فن القصة المعترف بها عالميا.

ونشير هنا إلى تشابه- إلى حد ما - في الظروف المعيشية لسكان القارة الأمريكية وسكان القارة الإفريقية، حيث نجد الأدباء لكلي القارتين يمارسون أدبهم بعد تجارب مروا بها وحرف امتهنوها في ظروف معيشية يومية صعبة، وربما الذي أدى ذلك هو منطلق الأدباء، فالدعوة إلى مبدأ الحرية واحترام حقوق الإنسان وشرفه لدى شعراء القارة الإمريكية يماثله ما لدى شعراء شمال القارة الإفريقة المتأثرين بالدين الإسلامي الغني بتلك المبادئ.

الخيال:

جاء في تعريف الخيال عدة معاني يكمل بعضها البعض فالخيال: قوة تتصرف في المعاني لتنتزع منها صورا بديعية، وهذه القوة أيضا تصوغ الصور من عناصر كانت النفس قد تلقتها عن طريق الحس والوجدان ، ولعل المخيلة هنا تعتمد علة قوة التذكر لدى الشاعر، وهو أداة عامة يصل بها الشاعر إلى المتلقي الذي يعي المعنى الحقيقي له

والخيال عنصر من عناصر الشعر يأتي على شكل تشبيه واستعارة وكناية ومجاز.

كل من يقرأ أشعار جزائرية باللسان الفرنسي يجدها تزخر بتلك القوى المتصرفة في المعاني من أجل بناء الصور البديعية تصب كلها في الذود عن حيض الجزائريين والمغلوبين عن أمرهم، الفاقدين لمجدهم وعزهم، والحالمين بعودتهما، لقد كان للجزائري تاريخ عمدة في الشمال افريقي - مثلا - يفتخر به بين الأمم، لكن ذلك صار هباء منثورا حيث غدت الجزائر تحت نير الاحتلال الفرنسي مما جعل الشاعر الجزائري مثل مالك حداد يصف هذا الصرح ويلف بخيال ممزوج ألما وحسرة، يقول:

التاريخ غامض بصلصلة القيود، إنه يولد في الحديد
كل ما حولنا يصدمنا، يثير فينا الألم والمرارة
لقد حولت الهندسة إلى حسب للزاويةالقاتلة في ارتفاع بندقية وقبيحة
وواضح أنني لا أستنتج شيئا من ذلك
بودي الإدلاء باعتراف رهيب؛
حينما كنت طفلا، كانت نزهتي الأثيرة حين يتاح لي أن أركب القطار
ما أجمل أن يركب الطفل قطارا
لكم استمتعت بأعمد البرق السامقة حين كنت ألصق وجهي بالزجاج
لكم يخطر لي أنذاك أن الأعمدة ستقطع يوم
واليوم أيها الصديق[1]

كثافة الصور:
عرف ابن منظور الكثلفة بقوله:" الكثرة والالتفاف، فالكثيف هو الكثر المتراكب، والملتف العريض من أي مادة
والكثافة شكل متطور من أشكال الرمز، فالكثيف رمز تخطي البعدين في الكلام إلى أبعاد أكثر شمولية وعددا، قد يضيف الغموض لكنه يزيد عمقا، وهو نتيجة طبيعية للتغيير الذي يشهده الخطاب الشعري العربي مع مرور الزمن.
في ديوان مالك حداد الشقاء في خطر الكثير من صور الحقائق الإنسانية في أرض الجزائر ومنها قوله:
يجب أن تسير يا صديقي لتجعل وجودك أغنى وأخصب
أراغون داعب غرورك حين امتدحك بقوله:
" أنت طائر من طور الأغصان العلياط
فإذا احمر وجهك ، من المؤكد أن هذا لن يكون احمرار الكهرباء
مایاكوفسكي هم من وضع يده على السر
هو من أدرك الحقيقة
ولكنه كان وحيد مثل جندي حراسة، وحديدا كتحذير
كان وحيدا متصبا مفجعا منتصرا يحز القلب مار
كان فضفاضا مثل حاشية ثوب سابغ
ألصق أنفه بزجاج النهار
أترانا نعلم ذات يوم لماذا تحطم ذلك الزجاج؟
فنتساءل حينئذ العدو .. ماهو العدو إذن؟
العدو رجل له ذراعان وساقان مثلك
ولكنه لا يؤمن بالربيع إلا إذا وجده مسجلا في التقويم
كلية الإنساء هذه تتجسد في علم، في برتقالة،، في خريف دافئ
كصدر امرأة حبيبة، في كل شبان العالم الذين يمدون إليك أيديهم حين تتحرر من شللها
كلية العالم هذه ستصل إليها تنقب جميع زوايا شقائك
الاختصار:
اختصار الكلام حذف الفضول منه، وتقليله وحذف ما يمكن الاستغناء عنه.
في هذه الأبيات التي أهى بها مالك حداد مقدمة ديوانه بعنوان مقدمة الشاعر اختصار رائع لدعوته ولمقاومته ولإنسانيته، يقول:
أما أنا فإني للباقات
الشاعر أكبر من أن يتحزب، إنه يحلق فوق وطنه مثل نسمة من نسمات التحرير
نسمة وطنية ذات نشيد وطني
لا تدع الأصابع يغار بعضها من بعض، إن اليد بمجموع أصابعها هي التي تستأر باهتمامي
فلأرفع قبضتي
ولتنطلق أسراب النحل.

المحاضرة السادسة

السرد الجزائري باللغة الفرنسية

كثيرة هي تعريفات مصطلح السرد فهو من جهة معول فني في يد الأديب لبناء قصته أو روايته، لذلك يعتبر من أسس البناء أثناء عملية الحكي، فالصورة المتخيلة لا يمكن نقلها للقارئ أو السامع إلا إذا صيغت بجزئياتها مع الأحداث عبر صورة لغوية.

وللسرد عدة تعريفات منها أنه:" الكيفية التي تروى بها القصة عن طريق (السارد أو الراوي) تحت تأثير عدد من العوامل المتعلقة بالسارد أو المسرود له أو النص، وهو مصطلح نقدي الغرض منه نقل الحدث والموضوع من صورته الواقعية إلى صورة لغوية مكتوبة أو منطوقة.

أو هو:" خطاب غير منجز وطريقة تروى بها القصة؛ فهو مجموع الأحداث المروية من الحكاية أو الخطاب الشفهي أو المكتوب، وهو الفعل الواقعي أو الخيالي الذي ينتج عن عملية الرواية".

يحسن بنا قبل الحديث عن قصص ورويات أدباء الجزائر باللغة الفرنسية بسط الكلام عن مصطلح السرد ومعانيه.

السرد لغة: عادة ما يلجأ الطالب إلى معاجم اللغة العربية في تعريف المفردات، وأول المعاجم وأكثرها حضورا لديه هو معجم لسان العرب، فقد عرف ابن منظور السرد بأنه:" تقدمة شيء إلى شيء، تأتي به متسقا بعضه في بعض متتابعا، سرد الحديث ونحوه يسرده سردا إذا كان جيد السياق له"[2]، والمعنى الذي أراده ابن منظور عام هو تتابع الأشياء من الأول إلى الآخر بانسجام واتساق، فنقول فلان يسرد حديثا إذا كان ذلك متتابع وفي انسجام، أما صاحب تاج العروس فقد عرف السرد بقوله:" والسرد نسج الدرع وهو تداخل الحلق بعضها في بعض، والسرد اسم جامع، وقوله عز من قائل: وقدر في السرد قيل هو ألا يجعل المسمار غليظا والثقب دقيقافيفصم الحلق، ولا يجعل المسمار دقيقا والثقب واسعا فيتقلقل أو ينخلع أو يتقصف، ومن المجاز السرد جودة سياق الحديث"[3]، وهو ما ذهب إليه الطبري في تفسيره لــ" قدر في السرد.

خلاصة معنى مفردة سرد في التعريفين متقارب إن لم نقل واحد، وما يجمعها هو تساق الحديث وجودته.

السرد اصطلاحا:

يشمل مصطلح السرد في المعاجم المتخصصة على حدث أو أحداث أو خبر، سواء أكان ذلك من صميم الحقيقة أو ابتكار الخيال[4]، أو بمعنى في معجم آخر" هو بسط الحدث في أي عمل أدبي بسطا عاديا من غير حوار، وهو أسلوب إن طال ملّه القارئ"[5] وهذا يعني أن كل حديث ولو كان بسيطا سطحيا تضمنه العمل الأدبي يسمى سردا.

يذهب عبد المالك مرتاض إلى أن السرد هو التتابع الماضي على سيرة واحدة وسرد الحديث والقراءة من هذا المنطلق الاشتقاقي، ثم أصبح السرد يطلق علىفي السرد القصصي على كل ما خالف الحوار ثم ما لبث أن تطور مفهوم السرد في الغرب إلى معنى اصطلاحي أهم وأشمل، بحيثأصبح يطلق على النص الحكائي والروائي أو القصصي برمته، فكأنه الطريقة التي يختارها الراوي أو القاص أو حتى المبدع الشعبي ليقدم بها الحدث للمتلقي "[6]، والحقيقة أن مصطلح السرد يكون قد احتل مكانة هامة بين الدراسات الحديثة إذ فسر على أنه:" بمفهومه العام هو جزء من نظرية شاملة تطمح إلى أن تكون علما قائم بذاته له مناهجه وأسسه، لذلك أصبح هذا المصطلح بمفهومه الشامل يزاحم العلوم الأخربوأطلق على نفسه اسم السرد"[7]

السرد الجزائري باللسان الفرنسي

الرواية ـ القصة الجزائرية باللغة الفرنسية

شكلت الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية ظاهرة ثقافية ولغوية متميزة وأثارت بذلك حولها جدلا كبيرا بين النقاد والدارسين، منهم من عدها روايات عربية باعتبار مضامينها الفكرية والاجتماعية، والكثرة عدوها جزائرية مكتوبة باللغة الفرنسية

القصة القصيرة باللغة الفرنسية

بدايات القصة الجزائرية باللغة الفرنسية:

احتلت الدولة الفرنسية الجزائر عام 1830 واحتفلت بعيدها المئوي عام 1930 وخرجت منها عام 1962، وكانت تعتبر بلد الجزائر قطعة من فرنسا ولها الحق أن تمارس فيها ما يحلو لها سياسة واقتصادا وثقافيا ودينيا، لكن طريقها في تحقيق تلك السياسة كان مليئا بالمصاعب والمتاعب لأن الجزائريين لم يستسلموا لها طيلة تلك الفترة التاريخية الطويلة، ولعل الذي كانت تهتم به كثيرا هو تثقيف الجزائري ثقافة تعود به إلى أصله الأول كما كلنت تزعم، ومن هذا المنطلق احتكر الفرنسيون المجال الأدبي منذ بداية الاحتلال بداية بمنعهم تدريس اللغة العربية ونهاية بفرض الجنسية الفرنسية لمن يريد تعلم الفرنسية وهكذا عاش الجزائري جهلا مركبا جهل بلغته وآخر بلغة عدوه، وهذا ما جعل الساحة الأدبية في الجزائر في حالة من العقم، أما الفرنسيون فكان أدباؤها منذ الاحتلال " قد اكتشفوا الجزائر ووردوا عليها بطريقة حرة أو منظمة فقد كانت وزارة الحربية ترسل أعيان الأدباء والفنانين الفرنسيين للاطلاع والكتابة عن مشاهداتهم لتغري بها الرأي العام والراغبين في استيطان الجزائر ... فكان الراغب في السفر يجد في الدليل وصف المدن الجزائرية والجبال والطرق والسكان ووسائل الإقامة والمفردات اللغوية"[8]، وما عناوين هذه المؤلفات إلا شاهدا؛ مثل دليل فرنسي الجزائر، والخلاصة الطبوغرافية لمملكة الجزائر،

وخريطة مملكة الجزائر، ودليل المسافر إلى الجزائر، والدليل التاريخي والوصفي للجزائر، والدليل الشعبي" الذي ظل يطبع على التوالي بين 1962 و 1893"[9].

صحيح أن ما كتبه الفرنسيون عن الجزائر حينما زاروها للإقامة أو لمهمات أخرى مدنية أو عسكرية فيها الغث والسمين - وسواء كانت تحكي عن الغرائب الطبيعة الموجودة في الجزائر أو غرائب سكانها ومناخها وعموم أسرارها - لكنها تعتبر تراثا مؤرخا لأحداث جسام مرت بها الجزائر، مثل رواية علي والثعلب أو قصة الجزائر المنشورة عام 1832 للضابط الفرنسي أوسيد دي صال الذي شارك في الاحتلال.

كتب الأدباء الفرنسيون قصصا عن الجزائر وكتب أدباء الجزائر أيضا بلغة المحتل لكنها كانت أعمالا متأخرة من حيث بداياتها، حيث يؤرخ أول نص " أول نص أدبي كتبه جزائري باللغة الفرنسية إلى سنة 1891 وهو عبارة عن قصة بعنوان انتقام الشيخ مستقاة حسب ما يذكر ديجو من التقاليد الاجتماعية الجزائرية، كتبها محمد بن رحال ونشرتها المجلة التونسية الأدبية الفنية"[10]

لا تعتبر قصة انتقام الشيخ بداية لتأريخ فن القصة الجزائرية باللسان الفرنسي حسب المؤرخ الفرنسي دان ديجو بل أول الأعمال الحقيقية لهذا الفن الناشئ كانت لالقايد بن شريف المعروف بمصطفى القومي عام 1920، وبين الاحتلال وهذه السنة مدة طويلة تقدر بتسعين سنة(90) تستدعي أن يتساءل الباحثون عن سبب تأخر ظهور هذا الفن باعتبار أن الاحتلال كان يكرر دائما في المحافل الدولية أن وجوده في الجزائر من أجل رسالة حضارية، ولعل حقيقة الإجابة عن هذا التساؤل تكمن في سببين هما:

السبب الأول: سياسة العدوان التي انتهجها الاستعمار طوال احتلاله للجزائر وحربه الاستئصالية ضد الأمة ومقوماتها الأساسية.

السبب الثاني: سياسة التعليم التي انتهجها المحتل في الميدان، حيث أغلق مدارس العربية للشعب الجزائري ثم منعهم من تعلم لغته.

عناوين بعض الأعمال القصصية والروائية

زهرة امرأة المنجمي لعبد القادر حاج حمو صدرت عام 1925

مأمون بدايات مثل أعلى لشكري خوجة صدرت عام 1928، وله أيضا العلج أسير بربروسيا صدرت عام 1929

مريم بين النخيل لمحمد ولد الشيخ صدرت عام 1934

بوالنار الجزائري الشاب لرابح زناتي 1941

ليلى فتاة جزائرية لجميلة دباش صدرت عام 1948

ابن الفقير لمولود فرعون 1939

إدريس لعلي الحمامي 1939
لبيك لمالك بن نبي 1948
في المقهى وابنة العم لمحمد ديب 1955
الدار الكبيرة لمحمد ديب 1952 وله أيضا الحريق ومهنة الحياكة 1957
نوم العدل مولود معمري 1955
نجمة لكاتب ياسين 1956
الانطباع الأخير لمالك حداد 1958
صيف إفريقي لمحمد ديب 1959
التلميذ والدرس مالك حداد 1960 وله أيضا رصيف الأزهار لا يجيب 1961
من يذكر البحر لمحمد ديب 1962
أطفال العالم لجديد لآسيا جبار 1962
الأفيون والعصا لمولود معمري 1965
الطلسم محمد ديب 1966
أصابع النهار لحسين بوزاهر 1967
أسلاك الحياة الشائكة لصالح فلاح 1969
زهور نوفمبر لقدور محمصاجي 1969
الناجي لمولود عاشور 1971
عباد الشمس لمولود عاشور عام 1973
آخر موسم للعنب لمولود عاشور 1975
أيام العاناة لمولود عاشور 1983

إن القصة القصيرة المكتوبة باللغة الفرنسية مثله مثل فن الشعر المكتوب باللغة نفسها " لم تحظ بالأهمية ولا بالأولية لدى الكتاب والقراء على السواء، وتأتي في الدرجة الرابعة من حيث الاهتمام بها بعد الرواية والشعر والمسرحية"[11]

وفي هذا الشأن يقول عبد الله الركيبي" على أن الملاحظ أن الباحثين عندنا يتعرضون لمناقشة هذا الأدب إنما تنصب عنايتهم بالدرجة الأولى على الرواية والشعر والمسرحية ويغفلون الحديث عن القصة القصيرة بالفرنسية"[12]،

بداية التأليف باللسان الفرنسي

يخطىء من ينكر على الجزائريين معرفتهم باللغة الفرنسية وأدبها قبل احتلال بلدهم عام 1830، بدليل وجود شخصيات ذات صيت وطني آنذاك أمثال حمدان خوجة والكبابطي فللأول يرجع الفضل في تأليف أول مؤلف كتب بالفرنسية بعنوان"(المرآة) كتبه مع بداية الغزو الفرنسي، وتحديدا في الثلاثينات من القرن

التاسع عشر، عبر من خلاله على تذمر سكان الجزائر من ممارسات العسكر الفرنسي وتنكر فرنسا للمعاهدة المبرمة بينها وبين الداي حسين التي تقضي بترك الجزائريين أحرارا في بلدهم من خلال ممارسة شعائرهم الدينية والوطنية في ممتلكاتهم.

من خلال مطالعتنا لما ألفه الباحثون الجزائريون حول الأدب الجزائري باللسان الفرنسي أمثال أحمد منور والطيب بودربالة وجدنا تقريبا إجماعا في الانطلاقة الأولى لهذا السرد الجزائري، فأول قصة جديرة بالاهتمام كانت عام 1891 بعنوان انتقام الشيخ la vengeance du cheikh، للكاتب الجزائري المقرب من السلطات الفرنسية والمثقف باللغتين العربية والفرنسية والجامع بين السياسة والكتابة المدعو محمد بن رحال الذي ولد عام 1856 وتوفي عام 1928، أما المجلة التي نشرت القصة فهي المجلة الجزائرية التونسية أدب وفن الثلاثي.

وفي المجلة الجزائرية المسماة الحق نشرت رواية متسلسلة بعنوان مسلمون ومسيحيون Musulmans et Chrétiens للجزائري أحمد بوري، أما بعد الحرب العالمية الأولى فكان أول عمل سردي جزائري بلسان فرنسي وتحديدا سنة 1920 رواية بعنوان(أحمد بن مصطفى رئيس القوم) Ahmed ben Mustapha chef goumier لصاحبه القائد "ابن الشريف" (1879- 1921).

توال إبداع الطبقة الجزائرية المثقفة باللغة الفرنسية بين الحربين فكان كالآتي:

- قصة عبد القادر حاج حمو(1891- 1953) بعنوان - زهرة زوجة عامل المناجم Zahra femme du mineur
- قصة أحمد شكري خوجة 1891 .1967 بعنوان: مأمون مشروع مثل أعلى Mamoun l ébauche d un idéal، والعلج أسير البربر El Eulj captif des barbaresques عام 1929.
- قصة محمد ولد الشيخ 1906 - 1938 بعنوان: مريم في النخيل -
- قصة رابح زناتي بعنوان: بولنوار الشاب الجزائري Boulanouar le jeune algérien
- قصة عبد القادر حاج حمو بعنوان: زهراء امرأة المنجمي، Zohra la Femme du mineur عام 1925.
- قصة مولود فرعون بعنوان: نجل الفقير، le fkls du pouvre عام 1950.
- رواية مولود فرعون بعنوان: الربوة المنسية عام 1952.
- رواية محمد ديب بعنوان: الدار الكبيرة والحريق والنول
- رواية كاتب ياسين بعنوان: نجمة عام 1956.
- رواية مالك حداد بعنوان:
- رواية مالك بن نبي بعنوان: لبيك عام 1952.
- رواية آسيا جبار بعنوان: العطش ورواية أطفال العالم الجديد.
- رواية رقصة الملك، ورواية اله البربر، ورواية معلم الصيد

– رواية رشيد ميموني بعنوان النهر المتحول، عام 1982، ورواية: طومبيزا عام 1984.

نصل في نهاية هذا العرض البسيط ومن خلال عناوين هذه الأعمال الفنية لأدباء جزائريين خاضوا تجربة التعبير عن أوضاع شعبهم المزرية بلغة عدوهم الذي تنكر لهم في منحهم حرية التعلم بلغتهم الأصيلة وبالمقابل حاول فرض سياسة تعليمية هادفة لبسط نفوذه السياسي والأيديولوجي، إلى تثبيت رأي آخر لخص الآتي:" إن عنونة هذه الأعمال تظهر أن مشكلة الهوية تطرح بصورة تؤكد الأنا الثقافي، وأيضا بصورة اقتران الأنا بالآخر من منظور اندماجي يحيد كل تعابير التناقض، بالنسبة لهؤلاء الكتاب الجزائريين فإن الجزائرية والعروبة والإسلام يمكن لها أن تتعايش مجتمعة مع القيم الغربية في البوتقة الفرنسية" ويبدو من ذلك أن السياسة التعليمية الفرنسية حققت أهدافها كمرحلة من مراحلة أهدافها الاستراتيجية، وإلى ذلك أشار الطيب بودربالة في المقال نفسه:" لقد اكتشف النقد الحديث بأنه لا يوجد نص بدون تناص، بمعنى آخرأن كل عمل أدبي يخضع بالضرورة لمجموعة من مصادر التأثير . لقد كان لزاما أن تكتب الرواية الجزائرية بطريقة أو بأخرى في فضاء أدبي محتل من طرف الآخر، والثمن هو التنكر، التورط حتى الخيانة، نضيف إلى هذا أن هؤلاء الروائيين ينتمون إلى عائلات كبيرة مرتبطة بالنظام الاستعماري، فهم تربوا وتغذوا في هذا الوسط الأرستقراطي، وعلى الرغم من دعواتهم للإندماج وخضوعهم غير المشروط للأيديولوجيا الاستعمارية، فإن هؤلاء الروائيين وضعوا في منطقة حدودية تقع بين الجاليتين. هذا الوضع الغامض أدى إلى طرق مسدودة، فقد كانوا المدافعين المتحمسين للإندماج، لم يألوا جهدا في إظهار تبعيتهم لفرنسا من خلال ما كتبوه (مقدمات، اهداءات، تصريحات ...) فقد أكثروا من خطب الاعتراف والتبعية لسادة ذلك الزمان والذين ـ حسب رأيهم ـ قد أنهوا عصور البربرية، والعبودية وجعلوا من هؤلاء البربر أكثر إنسانية.

إن اختيار الخطاب الاثنوغرافي يكشف رضاهم وقبولهم نمط الوجود الواقعي الاستعماري (مرحلة اضطرارية بالنسبة إليهم (وإرضاء الجمهور المتكون كله من الأقدام السوداء .Les pieds noirs مع هذه الروايات، نجد أنفسنا في مواجهة ما يمكن تسميته بالدونية، فاللغة المستعملة تحيل على حقلين دلاليين في صورة العالم الكولونيالي: من جهة نجد لغة تعبر عن القيم الإيجابية (مدرسة، حضارة، نور، حرية، علم، إنسانية ...) ومن جهة أخرى هناك لغة تعبر عن الدونية والاحتقار وكل ما يحيل على العالم المستعمر مثل البربرية، الجهل، الظلامية القدرية، الاستبداد، إن فرنسا ليس مطلوب منها المساعدة على وضع حد نهائي للنظام الاستعماري وتحسين صورة الجزائري، ولكن لتكون ممجدة ومقدسة، إنه أدب الدفاع والاعتراف، والواقع أن هذه الروايات تتطلب إستراتيجية جديدة للقراءة، قراءة تفكك الخطاب الظاهر، حتى يسمح بالبحث في فضاء المستتر والمجهول. ويلاحظ أن أغلب هذه الروايات تعرف نهايات درامية (انتحار، موت، جنون، إحباط...) هذه النهايات تندد ضمنيا بالاستعمار، لكن هذا التنديد لا يمس أسس النظام الاستعماري، ولكن تعسفه، وتناقضاته"[13].